جامعة غليزان كلية الآداب واللغة العربية
الأستاذ : خليفي حاج أحمد

محاضرات في نظرية الأدب

نظرية التعبير

ظروف نشأتها :

ظلت نظرية المحاكاة مسيطرة على الحركة الأدبية والنقدية الأوربية حتى أواسط القرن الثامن عشر تقريبا . وفي هذه الفترة شهد المجتمع الأوربي تغيرات جذرية هزت أبنيته الاجتماعية و السياسية والاقتصادية و الثقافية . فقد استطاعت الثورة البرجوازية على الإقطاع أن تنقل البشرية جميعها من عصر إلى عصر إذ ولدت قيما ومفاهيم جديدة على كافة الأصعدة والمستويات ، ويمكن أن نوجز هذه التغيرات التي كان لها أثر الكبير في تاريخ الأدب والنقد بما يلي :

هيمنت فئات اجتماعية جديدة على جميع مناحي الحياة سميت بالطبقة البرجوازية ، استطاعت أن تقوم بنهضة اقتصادية واجتماعية استلزمت بدورها قيام نهضة فكرية وعلمية وثقافية ، فقد شهد المجتمع انتقال الناس من الريف على المدن وأصبحت المدن تكتظ بالمجتمعات البشرية مما ولد علاقات اجتماعية كثيفة ومعقدة ومستقرة وتطورت الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وظهرت فلسفات جديدة وأدب وفن جديد، ونمت الروح الفردية والروح الديمقراطية إذ كان شعار الثورة الإخاء والمساواة والحرية وجاء

التقدم العلمي ليضفي على مفهوم الفرد معان جديدة وظهرت المطبعة والصحف و الكتب والمكتبات كما انتشر التعليم فازدادت رقعة القراءة ، وأصبحت الحياة اليومية أكثر تنظيما ووجد الناس الوقت لتمضية أوقات الفراغ في القراءة ، كل هذه التغيرات أترث على حياة الإنسان الفكرية والعلمية والفلسفية وعلى مشاعره وأحاسيسه وعواطفه ، مما أدى إلى ظهور نظرية جديدة في الأدب وهي نظرية التعبير التي جاءت انسجاما ونتاجا للتغيرات الجذرية التي شهده العالم وارتبطت بالبرجوتزية وعبرت عن قيمها وطموحاتها في فترة صعودها.

ونظرية التعبير اتجاه أدبي و فني يستهدف في المقام الأول التعبير عن المشاعر و العواطف و الانفعالات الوجدانية التي تثيرها الأشياء أو الأحداث الخارجية في نفس الأديب ، و قد ظهرت ردا على نظرية المحاكاة الأرسطية ، التي هي محاكاة للواقع أي اهتمت بالواقع اهتماما كبيرا، و همّشت الذات و أعلت من سلطة الواقع و المجتمع ، لتأتي نظرية التعبير وتعلي من شأن الذات و تهتم بالمواضيع العاطفية و المشاعر و الوجدان

ووصفت نظرية التعبير بكونها تمردا على كل القواعد التي بنيت عليها نظرية المحاكاة فالكتابة تعاقد حرّ بين الكاتب و القارئ ، و بذلك تكون قد تجاوزت الاعتماد على الواقع كما كان الأمر بالنسبة لنظرية المحاكاة

فقد اهتمت هذه النظرية بالفرد المبدع و أهملت الأسلوب و الشكل الفني و معها تراجعت أدبية العمل الأدبي من حيث لغته و أسلوبه البلاغي في الخطاب ، في حين قدّست الذات حتى أصبح الإنتاج الأدبي مجرد انعكاس للحالة النفسية للمبدع يتمّ إسقاطها على البيئة الخارجية / العام الموضوعي.

الأسس الفلسفية و الفكرية لنظرية التعبير:

تمحورت التغيرات الجذرية في بداية القرن التسع عشر حول الفرد و الإيمان بالفردية ، لم تقتصر على مجال دون آخر ، فعلى الصعيد الاقتصادي

رفعت البرجوازية شعارها " دعه يفعل ...دعه يمر " و على الصعيد الأدبي وجد شعار " دعه يعبر عن ذاته " ...فكانت الحرية و الديمقراطية أساس المجتمع البرجوازي.

والفلسفة التي ظهرت في هذه الفترة هي الفلسفة " المثالية الذاتية " التي ترى أن الوجود الأولي للذات أو للوعي الإنساني ، أما العالم الموضوعي فهو من خلق هذه الذات ألن وجوده) وجود العالم الموضوعي (متوقف على مدرك له و دون هذا الإدراك يعد العالم الموضوعي غير موجود ، و نظرية التعبير تقوم على هذه الفلسفة ، الفلسفة المثالية الذاتية التي قدمت الشعور و الوجدان و العاطفة على العقل و التجربة.

ويعد الفيلسوفان الألمانيان إيمانويل كانط (Emmanuel Kant 1724 -1800) وفريدريك هيجل) Friedrich Hegel 1770 – 1831) من بين أهم المؤسسين لنظرية التعبير ألنهما كانا ينظران للفردانية ، كما كانا يتوجهان بأفكارهما إلى الأدباء و النقاد

فقد فصل كانط بين المعرفة الحسية و المعرفة العقلية ، و كان يرى أن الشعور طريقا إلى المعرفة الحقيقية أما هيغل فقد كان يرى أن الفن إدراكا خاصا للحقيقة و الخيال هو أداة ذلك الإدراك و هكذا تبلورت نظرية التعبير فلسفيا ليذهب روادها إلى القول : إن الأدب تعبير عن الذات و العواطف و المشاعر فالقلب هو نور الحقيقة ال العقل . و أصبحت، بعد ذلك ، وظيفة الأدب عندهم متمثلة في إثارة انفعالات و أحاسيس المتلقين و عواطفهم.

ونشأت نظرية التعبير في ظل الحركة الرومانسية في إنجلترا ، على يد شاعرين و ناقدين رومانسيين إنجليزيين بارزين هما وليام وردزورث 1850-1770 و صموئيل تيلور كولردج 1772- 1834اللذين أصدرا ديوانا مشتركا هو " الأناشيد الغنائية " سنة 1798 ، و كان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الحركة الرومانسية في إنجلترا و أوروبا بصفة عامة ، فقد ترك هذا الثنائي أثرا بارزا في النقد الإنجليزي.

وعليه فإن الأدب عند وردزروث ذاتي و فردي بالدرجة الأولى و الانفعال الذاتي هو الذي ينتج الأدب أما عند صموئيل كولردج فالخيال هو الذي ينتج عنه الأدب وهكذا نستخلص أن المعرفة الحقيقية هي المعرفة الباطنية الوجدانية و أن أجود الأدب هو الذي مصدره الوجدان.

فصموئيل كولردج يرى أن الخيال طاقة مهمة الإنتاج الادبي إنه " خلق صورة لم توجد و كان لها أن توجد بفضل الحواس وحدها أو العقل وحده ، و إنما هو صورة تأتي ساعة وتستحيل الحواس و الوجدان و العقل كلّ واحدا في الفنان بل كلّ واحدا في الطبيعة ، هذا الخيال وحده هو الذي يميز بين الشعراء و العباقرة. "

كما ألقت نظرية التعبير بظلالها على النقد العربي في العقدين الثاني و الثالث من القرن العشرين مع ظهور مدارس التجديد الشعري ، التي تبنّت الاتجاه الرومنسي ، مثل مدرسة الديوان و أبولو و المهجر و التي تصدّت للاتجاه الكلاسيكي / الإتباعي المتمثل في مدرسة الحياء و البعث ، ونتج عن ذلك اهتمام كبير بالذات و الوجدان و إبراز قيمة الفرد التي أهملها التقليديون ، تجلى ذلك في تنظيرات هؤلاء الشعراء الأولى في مقدمات دواوينهم التي يكتبها الشاعر نفسه أو أحد النقاد ، مثل مقدمة العقاد للجزء الثاني من ديوان عبد الرحمان شكري و عنوانها " الشعر و مزاياه " في 1913 ، و مقدمته لديوان المازني " " 1914 و مقدمة عبد الرحمان شكري نفسه للجزء الثالث من ديوانه و عنوانها العاطفة في الشعر))1915

ونستطيع القول إن نظرية التعبير أبرز مفهوم نظري تحكم في الإنتاج الأدبي و النقدي في الثقافة العربية في أغلب عقود القرن العشرين ، فالانفعال و الفردية و الصدق و الوحدة العضوية و التأكيد على قيمة الخيال ، و الإيمان بفردية الأديب و إحساسه و قدراته التعبيرية التي تميزه أصبحت مألوفة و من البديهيات في الأدب بدليل أن هناك مؤلفات عدة تتناول حياة الأديب و أدبه ، مثل كتب العقاد و منها أبو نواس الحسن بن هانئ وكتاب عيسى بلاطة عن السياب بدر شاكر السياب حياته و شعره و غيرها من المنتجات الأدبية و النقدية التي اهتمت بالفرد و جوانبه الذاتية.

خاتمة: كان لنظرية التعبير أثر هامة على مسار الأدب والنقد، ولقد شكلت انعطافا حادا في هذا المسار لا تزال أثاره ممتدة حتى يومنا هذا ، بل إن بصمات تركتها على المسار الأدبي والنقدي ، وربما ستظل واضحة القسمات ، وقد أسهمت بالفعل في تنوير جوانب العمل الأدبي وعملية الإبداع ، ,يمكن أن لخص أهم نتائجها بما يلي :

قوة العلاقة بين الأدب والسيرة ، فالأدب نتاج الفرد الخلاق والشاعر يكتب عن نفسه وأعمق مشاعره ، يقول كلوريدج ، إن أية حياة مهما كانت تافهة ستكون ممتعة إذا رويت بصدق وقد اوجد هذا ما يسمى بالنقد السيري الذي يرى أن الأدب صورة طبق الأصل للمشاعر والخبرات الشخصية ، والأدب يجب أن يدرس وينقد من خلاله سيرة الكاتب وبنفسيته

-قوة العلاقة بين الأدب وعلم النفس إذ ظهرت الكثير من الدراسات التي تربط الأدب بعلم النفس وحاولت كشف العالم ادخلي للأسنان ن وقد ربطت بين إنتاج الأدب والموهبة الفردية و اللاشعور الفردي والجمعي

- يعد كلوريدج ممهدا للفلسفة الفرويدية والوجودية

وعلى أية حال فإن نظرية التعبير قد جاءت كثورة البرجوازية على الإقطاع ، لهذا يمكن أن تعد بمثابة رد فعل عنيف ، على نظرية المحاكاة ، وعلى الرغم من ذلك فقد صدرت نظرية التعبير عن فكر مثالي هذا الفكر الذي لم يلغي العقل لكنه وضعه في تناقض مع الوجدان ، و ألح بأن المعرفة الحقة هي المعرفة الوجدانية مادام الأصيل في الاسنان هو وجدانه ، في الفن والأدب وهو ما عبر عن هذا الوجدان ، لكن التركيز على الذاتية و الفردية و على العواطف والانفعالات والمشاعر والخيال مع تأكيد الفصل بين العقل والوجدان ، بين العمل الفني والعمل ، وبين المعرفة العلمية والعقلية وبين المعرفة الوجدانية وبين الباطن والخارج وبين

الفرد والمجتمع ، كل ذلك يهدف على إبراز قدرة الفردةوجوده ، لكنه في الجهة المقابلة يهدف إلى نسيان الاثر السياسي والاجتماعي الذي يعيشه الفرد.